قراءات ومراجعات

السُّنَن الإلهية في أبحاث مجلة "الفكر الإسلامي المعاصر"
أنظار ومراجعات

عبد الله عطا عمر*

مقدمة

يُعدُّ موضوع السُّنن الإلهية من أكثر الموضوعات التي اهتمَّ بها المعهد العالمي للفكر الإسلامي في مجلة الفكر الإسلامي المعاصر (إسلامية المعرفة سابقاً)؛ إذ ناقش هذه المسألة في أكثر من عدد، وتحت عناوين مختلفة، ومن زوايا متعددة، دراسةً ووصفاً وتحليلاً.

ولا غرابة في هذا إنْ علمنا أن موضوع السُّنن الإلهية هو من أكثر الموضوعات التي حفل بها القرآن الكريم، ووجّه إلى أهميته وضرورته القصوى في فهم حركة الوجود، وقوانين الكون، وطبائع الحياة، وسنن العمران، والتاريخ ومناهج الاستخلاف، وسُبُل التحضُّر، كما دلّت عليه هدايات الرسالة النبوية الخاتمة من خلال توجيهات الرسول ﷺ وأقواله وأفعاله وسائر أنشطته التي تصبُّ في إطار رسالة الوحي وتبيينها للأمة، وتقديم النموذج الحضاري الشمولي القدوة للرسالة الاستخلافية والوظيفة الشهودية، التي أنيطت بالإنسان المسلم وأُمّته التي وصفها القرآن الكريم بالخيرية

* دكتوراه في الحديث الشريف وعلومه، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، 2012م، باحث ومحقّق ذو دراية واهتمام بتحقيق كتب التراث، وعناية بأسباب النهوض الحضاري، البريد الإلكتروني: dabd_alali2010@hotmail.com

تم تسلُّم القراءة بتاريخ 5/ 2/ 2023م، وقُبِلت للنشر بتاريخ 15/ 4/ 2023م.

عمر، عبد الله عطا (2023). **السُّنن الإلهية في أبحاث مجلة "الفكر الإسلامي المعاصر": أنظار ومراجعات**، مجلة "الفكر الإسلامي المعاصر"، مجلد 29، العدد 105، 313-346. DOI: 10.35632/citj.v29i105.7731

كافة الحقوق محفوظة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي 2023 ©

والوسطية في قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران: 110] وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:143].

ولا شك في أن فهم قضية السُّنن الإلهية ومتعلقاتها في حياة الناس تجعل حياتهم أسهل، وفهمهم لواقعهم والطريق الذي ينبغي أن يسلكوه أوضح وأقرب، من هنا جاءت هذه الدراسة لتضيء هذا الجانب، بالوقوف على ما جاء في المجلة من مقالات وعناوين حول السُّنن الإلهية، في محاولة لتجزئة هذا الموضوع حسب مضامينه والزاوية التي نظر منها أصحابها إلى هذه المسألة؛ كلٌّ بحسب تخصُّصه وفكره؛ ما جعل هذه المقالات تَتَّسِق معاً لبيان موضوع السُّنَن الإلهية وتجليته. ويمكن تقسيم الموضوعات التي تم تتبعها في هذا الموضوع إلى ثلاثة أُطر؛ السُّنَن الإلهية، والبحوث التي تناولت السُّنَن الإلهية بشيء من التفصيل، والبحوث التي أشارت إشارة عابرة إلى السُّنَن الإلهية. وقد رأَينا أنْ نخصَّ بالذكر تلك البحوث التي عُنِيت فقط بموضوع السُّنَن الإلهية.

وقد جاءت هذه القراءة في خمسة محاور، هي:

المحور الأول: السُّنن الإلهية وأثر فهمها في الفرد والمجتمع.

المحور الثاني: منهج القرآن ومقاصده في بناء الإنسان وبناء الأمم والمجتمعات.

المحور الثالث: أهمية فهم السُّنن الإلهية في تفسير التاريخ ورؤية العالم وإعمار الكون.

المحور الرابع: التوحيد؛ رؤية للكون وإبستمولوجيا بناء الوعي.

المحور الخامس: علاقة السُّنن الإلهية بقيام الحضارات وانهيارها.

المحور الأول: السُّنن الإلهية وأثر فهمها في الفرد والمجتمع

العنوان	المؤلف	نوع المادة	المراجعة	العدد	الصفحات
الرؤية الكونية الحضارية القرآنية المنطلق الأساس لإصلاح الإنسان	عبد الحميد أبو سليمان	كتاب	يوسف الجوارنة	العدد 63 2011م	(166-151)
قضية السنن الإلهية في الفكر الإسلامي المبكِّر	عبد العزيز برغوث	بحث		العدد 44 2006م	(90 – 59)
علم العمران الخلدوني، وأثر الرؤية الكونية التوحيدية في صياغته: دراسة تحليلية للإنسان والمعرفة عند ابن خلدون	صالح مشوش	كتاب	عبد الله عطا عمر	العدد 76 2014م	(162-143)
الحركة الكونية للإنسان في القرآن الكريم	محمد الحسن بريمة	بحث		العدد 83 2016م	(179-151)

تناولت مجلة الفكر الإسلامي المعاصر (إسلامية المعرفة سابقاً) موضوع السُّنن الإلهية بصورة واضحة، وكان تركيزها على أَثَر فهم هذه السُّنن في استقامة حياة الإنسان وفكره في التعامل مع هذه السُّنن والقوانين التي خلق الله تعالى عليها هذا الكون ونظامه، وما أودعه الله تعالى فيه من أمور تسهل حياة الإنسان وتُعِينه على تحقيق هدفه بالاستخلاف في هذه الأرض. ثم كشفت المجلة عن التطبيق العملي لهذه السُّنَن عبر العصور، وأثر ذلك (إيجاباً، أو سَلباً) في استقرار الإنسان ونهضته، أو انحسار أمره وحيرته؛ فالإنسانية تعاني منذ أفول نجم الحضارة العربية الإسلامية حتى اليوم حيرة واضطراباً في مختلف جوانب الحياة؛ السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها، ذلك أن المنعطف الكبير الذي جاء به الإسلام أنقذ البشرية من سلطة الإنسان، إلى فضاءات واسعة من الحياة الحرة الكريمة، التي غدا فيها الإنسان شاهداً على التحرر من أغلال وقيود التبعية وانفتح عقله على آفاق التفكير الرحيبة (إسلامية المعرفة، العدد 63، 2011م، ص151).

حاول عبد الحميد أبو سليمان أن يسهم في إعادة بناء عقل المسلم وتشكيله، من خلال الاهتمام بقضية تجديد منهجية الفكر الإسلامي ليكون فاعلاً، ويخرج مما أصابه من تشوهات وآفات للنهوض بالأمة إلى عزتها ورفعتها، فهذه الأمة الإسلامية بما تمتلكه من مقومات الاستخلاف التي كانت بها يوماً ما في طليعة الأمم الأخرى، حيث كانت لها غايتها حقيقية في الريادة والسيادة، بينما لم تعد الآن هي الأمة المبادرة للنهوض والخروج من دائرة التهميش والسلبية، وهي لن تخرج إذا لم تكن هناك رؤية كونية حضارية، تعطي الإنسان المسلم معنى حقيقياً إيجابياً للوجود، وغاية وهدفاً ودافعاً لهذا الوجود (إسلامية المعرفة، العدد 63، 2011م، ص152). ونبّه أبو سليمان على دور الأسرة التربوي في مواجهة الإعلام السلبي، من أجل الخروج بالأُمَّة من عثرتها، ومن الظلامية والانكسار والتبعية، فهذه الوسائل من فكر وتربية وتعليم إذا صلحت برؤية حضارية قرآنية صلحت الأمة المسلمة، وصلح أفرادها، وصلح نظامها الاجتماعي، وصلحت مؤسساتها، وصلحت معها الحضارة الإنسانية (إسلامية المعرفة، العدد 63، 2011م، ص164).

ولما كانت حقيقة السُّنن الإلهية ووظيفتها وموقعها من الاستخلاف والعمران والتحضر والشهود بهذا الشأن الكبير والدور الحيوي، فإن اهتمام الأُمَّة بها على مستوى الفهم والاستكشاف والتسخير والاستثمار والممارسة والتطبيق لا ينبغي أن يقلَّ عن هذه المكانة وهذا الموقع المتميز والفاعل، وليس من المعقول أن يغيب هذا المفهوم العظيم، وهذا المصدر الإلهي الغني للقوة والاقتدار والمكنة والفعالية عن وعي الأمة وعن قرائح وعقول جموع علمائها ورجالها الذين حملوا رسالتها الحضارية الاستخلافية للعالم عندما فهموا هذه السُّنن وسخروها، وانسجموا في فهمهم وممارستهم معها ردحاً طويلاً من الزمن. ولكن وعلى الرغم من هذه الأهمية والمكانة التي شغلتها هذه المسألة السُّننية في وعي الأمة وممارستها، وخاصة في المراحل المبكرة والمتقدمة للفكر الإسلامي ولحركة الحضارة الإسلامية، إلا أن هناك إشكالاً قد أثير حولها بصورة احتاج فيها الأمر إلى التوضيح وإزالة اللبس الذي قد يؤدي إلى تحريف الوعي، أو تزييف الحقائق التاريخية، أو غمط

حقوق علماء الأمة، أو الاستنقاص من شأن جهودهم وأعمالهم العظيمة في مجال بناء الوعي السُّنني ونشر الثقافة السُّننية في أوساط أبناء الأمة (إسلامية المعرفة، العدد 44، 2006م، ص60).

وقد اهتمَّ ابن خلدون أكثر من غيره بمسألة العمران، وتحدث كثير من العلماء بعده عن نظرية العمران التي طرحها في كتابه المقدمة، وتناولوها بالدراسة والتحليل والنقد. وقد عرض صالح مشوش في كتاب له بعض الدراسات التي عُنِيت بنظرية العمران والظاهرة الخلدونية، وانتهى إلى إمكانية التوصل إلى اتجاهات تفسيرها، من ذلك التفسير التوحيدي؛ إذ الإنسان هو الموضوع المحوري من أجل استيعاب حقائق ما فوق عالم الحس والمنطق والإدراك الإنساني في الدراسات الإسلامية، وتعد هذه الأوجه مفتاحاً لتفسير غيرها من الظواهر، إذ ارتبط هذا المفهوم بمجموعة من القضايا الإيجابية والسلبية، أما الإيجابية فهي التي تعبّر عن الطبائع مثل الاستخلاف والتمدن، والكسب والحضارة وغيرها، وأما السلبية فهي مثل التناقض والخراب والفساد والترف وغيرها (إسلامية المعرفة، 2014م، ص146).

وقد رأى صالح مشوش أنَّ مفهوم "العمران الخلدوني" ليس من جنس المفاهيم البسيطة، وإنَّما هو مفهوم مُركَّب من معانٍ مُتداخِلة، تُحدِّدها مستويات مختلفة، وقد جاء استعمال هذا المفهوم في "المُقدِّمة" على أوجه مُتعدِّدة؛ إذ تحدَّث ابن خلدون في بيانه لهذا المفهوم عن ثلاثة أنماط من المجتمعات البشرية: التجمُّع الطبيعي، والتجمُّع البدوي، والتجمُّع الحضري، وربط بينها بروابط شبه ضرورية، تُحدِّدها الأسبقية بينها، كما هو واضح في تفسيره لنشأة المُلْك وتأسيس الدول بوصفها كياناً سياسياً. وتوصَّل صالح مشوش إلى أنَّ تفسير بعض جوانب القانون العلمي في الفكر الخلدوني يتوقَّف على استيعاب قضية مهمة، هي دور المصطلح القرآني الذي يتضمَّن معنىً خاصاً مُهيمِناً يتحكَّم في العلاقات التي تعطي النص بِنيته اللغوية والفكرية (إسلامية المعرفة، العدد 76، 2014م، ص149).

إن وظيفة علم العمران وغاية الاستخلاف كما يراها ابن خلدون هي التحقق من مطابقة القضايا للوقائع، ومطابقة الأمر الوجودي للأمر الشرعي، فكل إنسان هو مستخلف على هذه الأرض، ولا يكون كذلك إلّا إذا كانت أفعاله وفق الهداية والوحي الذي جاء به رسول الله ﷺ،

وهكذا تتضح أهمية مسألة الاستخلاف وغيرها في المقدمة؛ إذ أكّد ابن خلدون وجود علاقة بين العمران والعلوم الشرعية، وأن للمجتمع والتاريخ والعمران قوانين موضوعية يجب الرجوع إليها للحصول على معرفة علمية موضوعية عن حركته وأحواله المتغيرة (إسلامية المعرفة، العدد76، 2014م، ص149).

كان ابن خلدون ملماً بأهمية الشروط اللازمة لتشكيل الأساس الأول في بناء علم العمران، وكانت أولى خطوات تحقيق ذلك هي تحديد الأولويات التي يقوم عليها هذا العلم، ومنها الإنسان كائن اجتماعي بالطبع، والاجتماع الإنساني ضروري، ثم تأكيده مراراً ضرورة ربط هذه المقدمات بجذورها الدينية؛ فالله سبحانه هو الذي حدد فيها السُّنن التي تسيّر حياة الإنسان (إسلامية المعرفة، العدد 76، 2014م، ص150).

حاول محمد الحسن بريمة في مقدمة بحثه إيجاد رابط موضوعي ومنهجي بين العمل الإنساني والخلق الكوني، لأن الكون كله (السموات والأرض وما بينهما)، لم يخلق إلا لابتلاء الناس أيهم أحسن عملاً، وهذا يقتضي أن يكون هذا الكون مسخراً للفعل والعمل الإنساني في إطار الكون المسخر للإنسان، فإن الأرض تحديداً هي موضع استخلافه ومنصة انطلاقه إلى الكون، والاستخلاف يقتضي التمكين الذي يتضمن التسخير، كما يخبرنا القرآن الكريم، وذكر بريمة أن هذا الرابط لا بدّ له من سببين، الأول أن هناك تداخلاً سببياً بين الفعل الإنساني من جهة، والظواهر الاجتماعية والطبيعية التي تكتنف حياة الناس من جهة أخرى، وهو تداخل ينجم عن تداخل آخر يسبقه بين الفعل الإنساني في الكون من جهة، والفعل الإلهي المهيمن والمصدق من جهة أخرى. والسبب الثاني أهمية هذا الرابط بين الفعل والعمل الإنساني من جهة والخلق الكوني من جهة أخرى؛ إذ إن استخلاف الإنسان كامنٌ في إطار متغيرين كونيين أساسيين هما متغير المكان ومتغير الزمان؛ ما يقتضي إعطاء أهمية بالغة لما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة بشأنهما، ذلك أن من يجهل المكان والزمان المحددين لتكليفه سوف يفشل في القيام بحق ذلك التكليف. إن عقد الاستخلاف بين الله تعالى وبني آدم يمكن تصوره بوصفه عقد معاوضة، إذ أحد العوضين عمل

الإنسان في الأرض معجَّل، والعوض الثاني الجزاء من الله تعالىٰ مؤجَّل (إسلامية المعرفة، العدد 83، 2016م، ص151).

وتحدث بريمة تحت عنوان حركة الإنسان في الزمان والمكان فقال: هناك أمدان زمانيان، ومديان مكانيان حاسمان يحكمان ويحددان حركة الإنسان في هذه الحياة الدنيا، وهو يتقلب في ابتلاءات الاستخلاف؛ أمد زماني ومدىٰ مكاني خاص بكل إنسان في شخصه، وأمد زماني ومدىٰ مكاني يحكم البشرية جمعاء؛ فالمدىٰ المكاني للإنسان الفرد يمتد من مكان مولده إلىٰ كل الأرض، يمشي في مناكبها، ليحقق مغزىٰ استخلافه، توحيدياً كان أو دنيوياً، لقد أخفىٰ الله تعالىٰ نوع رزق كل إنسان في هذه الحياة الدنيا ومقداره ومكانه وزمانه، فلا تدري نفس ماذا تكسب غداً، كما أخفىٰ المكان الذي تعيّن علىٰ كل إنسان الموت فيه، فلا تدري نفس بأي أرض تموت، كل ذلك حتىٰ يضرب الناسُ –مؤمنون وكافرون– في الأرض، مبتغين من فضل الله، دون خوف من موت قد يتربص بهم، ودون يأس من رزق قد ينتظرهم، هكذا ينتشر الإنسان في جميع الأرض مستوطناً ومستعمراً، وقد تواردت آيات القرآن الكريم مؤكدة هذه الحقيقة، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: 15] أما المدىٰ المكاني للبشرية جمعاء فيتمدَّد في الكون المسخّر للإنسان بسماواته السبع وأراضيه السبع جميعاً، كما صرَّح بذلك القرآن الكريم: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية: 13]، وكلمة جميعاً في الآية هي صيغة الجمع التي يعبّر بها الخالق سبحانه وتعالىٰ عن قصده الأرضين السبع بإضافته جميعاً إلىٰ كلمة الأرض، في القرآن الكريم كله (إسلامية المعرفة، العدد 83، 2016، ص152).

المحور الثاني: منهج القرآن ومقاصده في بناء الإنسان وبناء الأمم والمجتمعات

العنوان	المؤلف	نوع المادة	المراجعة	العدد	الصفحات
إعمار الكون في ضوء نصوص الوحي	زياد خليل الدغامين	بحث		العدد 54 2011م	(23 -62)
الحضارة الإسلامية أسباب الانحطاط والحاجة إلى الإصلاح	محمد عمر شابرا	كتاب	عبد الله عطا عمر	العدد 77 2014م	(151-170)
سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها	محمد هيشور	كتاب	يونس صوالحي	العدد 13 1998م	(153 -166)
القصد في القرآن الكريم بين التكويني والتشريعي: مقاربة مقاصدية	عبد الرزاق وورقية	بحث	-	العدد 57 2009م	(13 – 44)
مقاصد القرآن في بناء الحضارة والعمران	هيئة التحرير	افتتاحية العدد	-	العدد 89 2008م	(5 -9)
الرؤية الكونية الحضارية القرآنية المنطلق الأساس لإصلاح الإنسان	عبد الحميد أبو سليمان	كتاب	يوسف الجوارنة	العدد 63 2011م	(151-166)
الحركة الكونية للإنسان في القرآن	محمد الحسن بريمة	بحث	-	العدد 83 2016م	(151-179)
بين الله والإنسان في القرآن: دراسة دلالية لنظرة القرآن إلى العالم	توشيهكو إيزوتسو	كتاب	عيسى علي العاكوب	العدد 42-43 2006م	(171-181)

لا شك في أن بناء الإنسان هو اللبنة الأولى في بناء المجتمع، وهو الخطوة الأولى على طريق إعمار هذه الدنيا، فالإنسان هو الخليفة في هذه الأرض، وهو المسؤول عن إعمارها وإصلاحها. والإعمار هو وظيفة من بدهيات وظائف الإنسان وأساسياتها؛ فهو كالروح في الجسد، بل إن فعل الروح في

الجسد يمثل مظهراً من مظاهر التعمير له. ولا شك في أن التعمير المادي يسير مع التعمير المعنوي في آنٍ واحد، لا ينقطع أحدهما عن الآخر، فكأن حياة الإنسان لا تستقيم بنوع واحد من العمارة. وإذا كان بثّ الحياة في ميادين الكون بإصلاح شأنه، وتسخير ما فيه لخدمة الإنسان وتحقيق رفاهيته وسعادته هو المقصود بإعمار الكون، مما يقتضي وصول الإنسان إلى ذروة الكمال المادي والمعنوي عن طريق تذليل ما في الكون واستثمار ما فيه، واستشعار عظمة خالقه، فمن المفترض أن يكون ذلك وفق منهج مستقيم، ورؤية واضحة، كما عبَّر عن ذلك الأصفهاني في معنى قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: 48] فذكر أن الآية تشير إلى أمرين، أحدهما ما سخر الله تعالى عليه كل إنسان من طريق يتحراه مما يعود إلى مصالح العباد وعمارة البلاد، ومنها ما قيض له من الدين وأمره به، ليتحراه اختياراً مما تختلف فيه الشرائع، فكأن الإعمار لا يتم إلا وفق شريعة ومنهاج (إسلامية المعرفة، العدد 54، 2008م، ص26 –27).

والقرآن الكريم يدعو البشرية إلى تأمل التاريخ والتفكّر في العوامل المعنوية والمادية التي تتسبب في ارتقاء الأمم وانحطاطها، ويدعو كذلك إلى فهم المراد الإلهي الذي يتجلى في العمليات التاريخية المتعاقبة. ويقدّم القرآن الكريم رؤية مفادها أن رسالة الإسلام رحمة للبشرية، لكن العالم الإسلامي يعيش واقعاً لا ينسجم مع هذه الرؤية، فقد توالت عليه أسباب الانحطاط، ما أبعده عن تحقيق هذه الرؤية (إسلامية المعرفة، العدد 77، 2014م، ص151). وقد شدد الإسلام كثيراً على دور البشر في تحقيق تنميتهم، وأكد ضرورة أن تكون ثمار التنمية موزعة بالإنصاف على جميع أفراد المجتمع، لتمكّنهم من تلبية احتياجاتهم المادية وغير المادية، وزيادة مدخراتهم من أجل الاستثمار وتطوير مؤسساتهم الاجتماعية والاقتصادية والقضائية والسياسية، ما يؤدي إلى تقوية دوافعهم للعمل الجاد والفاعل، ويقود إلى مزيد من التنمية (إسلامية المعرفة، العدد 77، 2014م، ص152).

إنَّ أبرز سمة يركز عليها القرآن الكريم في موضوع السُّنن هي انضباط الساحة التاريخية والاجتماعية بقوانين تشبه تلك التي تحكم الظواهر الطبيعية، ومن ثمّ فهي سنن ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان، وطريقة اكتشافها هي السير في الأرض والتأمُّل في أحوال الأمم، كما أكّد ذلك

القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: 137] علماً بأنَّ مصدر معرفة السُّنن هو الله سبحانه. قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿٢٦﴾﴾ [النساء: 26] أما السُّنن الإلهية الأخرى فقد ذكر محمد هيشور منها سُنّة النصر، وسُنّة العقاب بعد الكفر، وسُنّة معاداة الكفار للرُّسل، وتُشكِّل هذه السُّنن الرؤية الحضارية الكامنة في القرآن الكريم. ولذلك فإن الوعي بهذه السُّنن والعمل بمقتضاها، يصنع الفرد المتحضر الذي يتحلى بالأخلاق الفضلى، فيسمو على الفرد القانوني؛ إذ إن سلطة الأخلاق أقوى من سلطة القانون. وفي ما يختصُّ بالسُّنَن والصدفة أو المصادفة، فقد أكد الباحث أنه ليس هناك مجال للصدفة في هذا الكون، وأنَّ الذي يُدرِك ذلك فقط هو مَنِ اعتنق عقيدة التوحيد، وهذا مؤيد بكثير من الآيات مثل قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: 2]. أما عن علاقة السُّنن بالصراع فيلاحظ محمد هيشور أن الصراع لا يمكن أن يكون سُنّة تدفع إلى الرقي والازدهار؛ لأن الصراع في حد ذاته خارج سُنَن الله التي قضت بقيام المجتمعات على أساس الإيمان والحب والتعاون، وهذا لا يناقض التدافع الاجتماعي الذي جاء به القرآن الكريم؛ إذ قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 251]؛ فالتدافع سُنّة يقضى بها على الفساد الذي يحدثه الكفار والمجرمون، ولولاه ما وجد للظلم والانحراف ما يدفعه. غير أنَّ القرآن الكريم لا يُنكِر وجود الصراع الذي يحكم كثيراً من الظواهر الطبيعية، كما أنه لا يجعلها الأساس المنهجي لتفسير التاريخ، وهو ما يهدم التفسير الماركسي للتاريخ الذي جعل من الصراع منهجاً تفسيرياً له (إسلامية المعرفة، العدد 13، 2098م، ص155).

وقد تحدث عبد الرزاق وورقية عن معنى المنهج ومعنى القصد لغةً، في مقاله "القصد في القرآن الكريم بين التكويني والتشريعي: مقاربة مقاصدية"، مُبيِّناً أنَّ القصد هو التوجُّه والاعتزام، وهو من حيث الاصطلاح الشرعي يتوجه إلى عدة معان، أبرزها الإرادة والنية والحكمة، فحقيقة النية هي القصد، وقد ورد في معنى الإرادة أن المريد هو القاصد لوقوع أحد طرفي الممكن، وأما معنى الحكمة

فقد ورد مقروناً بمعنى الإرادة؛ ذلك أن أهل الأصول عرفوا المقاصد الشرعية بالمعاني والحِكَم المرادة من طرف الشارع، من هنا فإن قصد الشارع هو إرادته، ومقاصد الشرع هي حِكَمه ومعانيه المرادة، وخلاصة القول إن البحث عن مقاصد القرآن الكريم هو في الأساس بحث في مراداته، وتتنوع مقاصد القرآن بتنوع مراداته، فالقصد في القرآن الكريم تابع للإرادة (إسلامية المعرفة، العدد 57، 2009م، ص15).

والقرآن الكريم له مقاصد تكوينية، ومقاصد تشريعية، يرى وورقية أن مقاصد القرآن تقع على ضربين، أحدهما القصد الكوني، والثاني القصد الشرعي، وقد عبّر عنها القرآن الكريم بعدة ألفاظ أو أنواع، منها: الإرادة الكونية، والقضاء الكوني، والحُكم، والكتابة الكونية، والأمر الكوني، والإذن الكوني، والجعل الكوني، والبعث والإرسال الكوني، والإنشاء، وغير ذلك، ويرى وورقية أن الإرادة الكونية هي الأصل في كل هذه الأنواع (إسلامية المعرفة، العدد57، 2009م، ص21).

موضوع البحث في مقاصد القرآن كان حاضراً في معظم أعداد المجلة، انطلاقاً من كثرة ما تحدث القرآن نفسه عن مقاصده، وقد خصصت إسلامية المعرفة العدد 89 ليكون عدداً خاصاً بموضوع مقاصد القرآن في الحضارة والعمران؛ ما يُؤكِّد اهتمام المعهد العالمي للفكر الإسلامي منذ زمن مبكر بموضوع المقاصد؛ إذ أفرد مساحة مناسبة لتطوير العلم والمعرفة والمنهج في موضوع المقاصد، وجاء الحديث عن مقاصد القرآن منسجماً مع رؤية المعهد في تطوير المنهج والآليات المناسبة للتعامل مع القرآن الكريم بوصفه الكتاب الكلي الأساس المهيمن، ولا شك في أن كل ما ورد في القرآن من ألفاظٍ معان لم يأت عبثاً، ولم يقتصر على ترشيد حياة الفرد الإنساني، وصلاحه في الدنيا، وحسن مصيره في الآخرة، وإنما كان بالإضافة إلى ذلك يعالج قضايا الحرية والعدل في حياة المجتمع والأمة، ويستهدف بناء الحضارة والعمران وحفظ نظام العالم (إسلامية المعرفة، العدد 89، 2018م، ص8).

وتحدث أبو سليمان عن أثر الانحراف عن المنهج القرآني، مُبيِّناً أنَّه فتح الباب واسعاً للخلاف الديني، الذي سلك مسالك منحرفة مزقت وحدة الأمة، وعددت سبلها، وقطعتها إلى فرق، ومزَق

وإلى طوائف وشيع، لا تحتكم إلى العلم والنظر والتدبر الشمولي العلمي السنني الموضوعي المنضبط، فاختلطت الحاجات الروحية بالمادية، وأصبح الإنسان هَمَلاً على هامش الحياة الحقيقية، يعاني قسوة الحياة وعنفوانها، بدل أن يكون ذا سعي وقدرة وإبداع ونفع وعطاء، يحقق قيمته الحقيقية في الاستخلاف، ويؤدي الوظيفة المنسجمة مع فطرة الإنسان المؤهل، الذي يدرك نوازع الإصلاح الروحية، ونوازع الفساد الطينية، ونوازع العدل والظلم، ونوزاع الخير، ونوازع الشر، دون أن يكلف فوق وُسْعه وطاقته (إسلامية المعرفة، العدد 63، 2011م، ص155).

ولن يصل مغزى الاستخلاف البشري إلى تمامه حتى يستوفي الإنسان رحلته الكونية؛ ليسكن الأرضين السبع (التي خلق الله له ما فيها جميعاً) ويعمرها، فمن الأرض خلق الإنسان، وفيها يحيا، وفيها يموت، ومنها يخرج تارة أخرى. وآيات القرآن الكريم صريحة في هذا المعنى، ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ۝٢٥﴾ [الأعراف: 25] ... فكل إنسان يعلم علم اليقين أنه قد يموت ليومه، أو غده، ولكنه يعلم أيضاً، من خلال التجربة الحياتية الممتدة لمليارات البشر، أن الإنسان الفرد في هذا الزمان، إذا سلم من الآفات يمكن أن يحيا ويعيش حتى مئة عام ويزيد، ومن ثم فإن متوسط العمر الاستخلافي المنتج للإنسان في الأرض يتراوح بين الخمسين والسبعين عاماً، بحسب البيئة التي يعيش فيها الإنسان، هذا المتوسط يشكل الأمد الزماني الاستراتيجي الحاسم للفرد، وعلى أساسه يخطط لحياته الاستخلافية في الأرض؛ ما يسمح بعمارتها. فلو خطَّط كل إنسان حياته على أساس أنَّه سيموت غداً، أو بعد غد، وقد يموت فعلاً، ما عمّر أحد الدنيا، ولانْتَفَت حكمة الله تعالى من وجود الناس على الأرض واستعمارهم فيها، ولما عاد للاستخلاف مغزى، ولا للحساب والجزاء الأخروي معنى، فكل المجتمعات المعاصرة ترتب شؤون أفرادها في كل مجالات الحياة بناء على هذا المتوسط العمري الزماني، ولو افترضنا أن هذا الأمد العمري تغيّر فجأة، فبلغ ما كان عليه في عهد نبي الله نوح عليه السلام، وهو الألف سنة، تزيد أو تنقص، بحسب الإفادة القرآنية، لارتبكت حياة الأفراد والمجتمعات في هذا الزمان أيّما ارتباك (إسلامية المعرفة، العدد 83، 2016م، ص154).

ويتحدث توشيهكو إيزوتسو في الفصل الثالث من كتابه "بين الله والإنسان في القرآن الكريم"، عن العلاقة الشخصية بين الخالق العظيم سبحانه والإنسان، في دراسة دلالية للرؤية القرآنية للعالم، ويتحدث عن نوع هذه الرؤية وبِنيتها الأساسية، لتكوين فكرة عامة عن المخطط المفهومي لنظرة القرآن الكريم إلى العالم، من خلال دراسة تحليلية ومنظّمة للكلمات الأكثر أهمية التي تؤدي وظيفة حاسمة في تمييز الفكرة الغالبة التي تتخلل جملة الفكر القرآني، وتنفذ فيه، وتغلب عليه (إسلامية المعرفة، العدد 43، 2006م، ص175). ويخصص الفصل الرابع من كتابه للكلمة الصميمة في معجم القرآن (الله)، مُبيِّناً أنَّ النظرة إلى العالم في القرآن مرتكزة على الله سبحانه أساساً، وأنَّه من الطبيعي في المنظومة القرآنية أن يحكم مفهوم (الله) الكل من علٍ، ويترك تأثيراً عميقاً في البنية الدلالية للكلمات المفتاحية جميعاً. ولأهمية فهم الكيفية التي يُبنى فيها هذا المفهوم دلالياً جعل هذا مدخلاً لدراسة المسألة الأساسية لديه؛ مسألة العلاقة الرباعية بين الله تعالى والإنسان. وفي الفصل الخامس ناقش العلاقة الوجودية بين الله والإنسان، مركزاً على محورين مهمين يدوران في فلك هذه العلاقة، وهما: خلقُ الله الإنسان من عدم، وقدَر الإنسان. وعقد مقارنة بين النظرة الجاهلية إلى العالم، والنظرة القرآنية إليه، فالنظرة الجاهلية إلى الحياة نظرة كئيبة جداً؛ إذ تُتصور الحياة كلها سلسلة من الفواجع التي لا يحكمها القانون الطبيعي للنماء والبلى، بل الإرادة الغامضة لكائن مظلم أعمى شبه شخصي، لا منجاة من قبضته القوية، أما عالَـم القرآن فيقدم صورة مختلفة تماماً للشرط الإنساني، والاختلاف بين النظرتين إلى العالَـم في هذا الشأن شبيهٌ تماماً بالاختلاف بين الليل والنهار (إسلامية المعرفة، العدد 42– 43، 2006م، ص177).

فالإنسان ينتشر في كل هذه الأرض، مستوطناً ومستعمراً، وقد تواردت آيات القرآن الكريم مؤكدة هذه الحقيقة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ [الملك: 15] فالأمد الزماني الخاص باستخلاف كل فرد مكلف، هو مدة أجله الذي أجّله الله تعالى له في هذه الحياة الدنيا، فمن مات فقد قامت قيامته، وأما الأمد الزماني لاستخلاف البشرية فيمتد إلى قيام الساعة، وقد أخفى الله تعالى اللحظة التي يموت فيها كل إنسان في إطار أمده الزماني الخاص

به، ولكنه –سبحانه– جعل العلم بجملة الأمد الزماني الذي تتمدد فيه حياة المكلف في هذه الأرض ممكناً على وجه التقريب (إسلامية المعرفة، العدد 83، 2016م، ص154).

فلا ريب في أن الحاجة مُلِحَّة لتأصيل التعامل مع السُّنن الجارية، أو لإعادة التعامل معها على نحو فاعل وصحيح؛ أعني السُّنَن الاجتماعية، والسُّنَن النفسية، وكذلك السُّنَن الكونية أو السُّنَن الطبيعية، وهو ما قام به ابن خلدون إذ أدار مقدمته حول هذه السُّنن، وسائر ما يتصل بها من العلل والأسباب؛ أسباب قيام الدول وعلل سقوطها، وسنن العمران والاجتماع الإنساني، وقد لا يخرج عن هذا النطاق كذلك ما حاول ابن خلدون أن ينهض به من إصلاح مناهج التأليف وطرق التربية والتعليم، التي عرضها في الباب السادس والأخير من مقدمته، وخصص لها فصولاً عدة وصفحات كثيرة (إسلامية المعرفة، العدد 50، 2007م، ص156).

وتأسيساً على ذلك، فإنَّ عمارة الأرض بمعناها الشامل تشمل إقامة مجتمع إنساني سليم، وتشييد حضارة إنسانية شاملة؛ ليُظهِر الإنسان بذلك عدالة الله تعالى وحُكْمه في الأرض. ومهمة الإنسان هي تحقيق جامعة إنسانية فعالة في سبيل النهوض بعمارة هذا الكوكب الأرضي؛ العمارة الكلية الشاملة لكل ما تَتَّسِع له كلمة "العمارة" من معانٍ مادِّية وعلمية واقتصادية؛ فهي غاية وجود الإنسان وهدفه الأعظم، ولا سبيل له إلى حياة كريمة إلّا بالقيام بعملية الإعمار على مختلف الصُّعد، لتظهر كمالات الإنسان واستعداداته اللامحدودة في الحياة (إسلامية المعرفة، العدد 54، 2008م، ص29). وأضاف الدكتور الدغامين في خاتمة بحثه: إن الاقتصار على الإعمار المادي للكون ينطوي على مخاطر كبيرة؛ لأنَّه يعني تحوُّل الإعمار إلى غاية تهيمن على كيان الإنسان وحياته، وقد اندثرت حضارات وهلكت أقوام لم يكن لها ذنب سوى أنها عمرت الظاهر وأفسدت الباطن؛ ظاهر الحياة وباطن الإنسان. وعلى ذلك فإنَّ تشريعات القرآن هي التي مثلت غايات نهائية تروم إعمار الكون، مثل فرضية الزكاة؛ ذلك أنَّ الزكاة لا تتأتّى إلّا بعد استثمار المال في صناعة أو زراعة أو تجارة، حتى لا يتوهمَنَّ أحد بأن وسائل الإعمار تلك من صناعة وزراعة وتجارة هي غايات مقصودة لذاتها، فالغاية هي امتثال أمر الله، وتلك وسائل تقود إليه. وقد أظهرت نصوص الوحي أن مهام الإنسان المتمثلة

في الخلافة والعبادة والأمانة والعمارة والشهادة تتضافر وتتداخل من أجل تحقيق عمارة راشدة للأرض والحياة والإنسان (إسلامية المعرفة، العدد 54، 2008م، ص61).

المحور الثالث: أهمية فهم السُّنن الإلهية في تفسير التاريخ ورؤية العالَـم وإعمار الكون

العنوان	المؤلف	نوع المادة	المراجعة	العدد	الصفحات
رؤية العالم بوصفها أداة إجرائية لمقاربة الحداثة	نصر الدين بن سراي	بحث	-	العدد 91 2018م	(70- 45)
إعمار الكون في ضوء نصوص الوحي	زياد خليل الدغامين	بحث		العدد 54 2011م	26
نحو رؤية منهجية مواكبة في دراسة التاريخ "ابن خلدون نموذجاً"	محمد علي الأحمد	بحث	-	العدد 51 2007م	(38- 9)
قضية السنن الإلهية في الفكر الإسلامي المبكر	عبد العزيز برغوث	بحث		العدد 44 2006م	(90 – 59)
الحضارة الإسلامية أسباب الانحطاط والحاجة إلى الإصلاح	محمد عمر شابرا	كتاب	عبد الله عطا عمر	العدد 77 2014م	(170 – 151)
انهيار الحضارة الإسلامية وإعادة بنائها: الجذور الثقافية والتربوية	عبد الحميد أبو سليمان	كتاب	حسان عبدالله حسان	العدد 94 2018م	(166 – 153)

الحركة الكونية للإنسان في القرآن الكريم	محمد الحسن بريمة	بحث		العدد 83 2016م	(179 – 151)
الرؤية الكونية الحضارية القرآنية المنطلق الأساس لإصلاح الإنسان	عبد الحميد أبو سليمان	كتاب	يوسف الجوارنة	العدد 63 2011م	(166 – 151)
علم العمران الخلدوني، وأثر الرؤية الكونية التوحيدية في صياغته: دراسة تحليلية للإنسان والمعرفة عند ابن خلدون	صالح بن طاهر مشوش	كتاب	عبد الله عطا عمر	العدد 76 2014م	(162– 143)

يُعدُّ إعمار الكون من المهام الأساسية للإنسان الخليفة في الأرض، ولضرورته القصوى للحياة الإنسانية: فقد مثَّل مظهراً من مظاهر تحقيق العبودية لله تعالى، واتسع مفهوم العبادة ليتجاوز أداء شعائر تعبدية معينة إلى كل فعل مادي أو معنوي من شأنه أن ينهض بالإنسانية، ويُعِينها على تحقيق الرقي والنهضة في المجالات كلها. وهذا هو المعنى الأنسب الملائم لطبيعة الإنسان، وَلِـما أودع الله تعالى فيه من أسرار، أهمُّها: حُبُّ البحث والتطلُّع إلى المعرفة، والرغبة في معرفة التفسير الصحيح لحكمة الخَلْق، وسِرُّ الوجود، ووظيفة الإنسان فيه، وقد شهدت نصوص كثيرة في القرآن الكريم والسنة النبوية بهذه المهمة (إسلامية المعرفة، العدد 54، 2008م، ص23).

ولم تكن الأمة المسلمة على امتداد عصورها مقصّرة في عملية إعمار الكون والحياة والإنسان، فقد استطاعت تحقيق إنجازات كثيرة على المستويين: المادي والمعرفي، وشهد لها بذلك أمم الأرض،

ولكنها اليوم استسلمت حين غلب على عقول أبنائها حبّ التقليد والتبعية للآخر، وسلّمت راية الإعمار إلى غيرها، فتعطلت طاقات كثيرة، وتعثّرت جهود كبيرة في عملية الإعمار، ووصل بها الحال إلى أن تعتمد على غيرها في حياتها كلها، حتى في الدفاع عن نفسها، واستطاع الآخر أن يبثّ روح الخلاف والفرقة بين أبنائها وأوطانها، ويهيمن على سياستها واقتصادها، حتى أصبحت عاجزة عن اتخاذ أي قرار مصيري يؤثر في استقلالها ونهضتها وتقدمها ورقيها، فقلّت بل كادت تعدم فاعليتها – اليوم– في عملية الإعمار، وتراجع إسهامها في بناء الحضارة وصنع المنجزات إلى حد كبير (إسلامية المعرفة، العدد 54، 2008م، ص23).

ولا يُمكِن لعملية الإعمار أنْ تتمَّ بنجاح إلّا وّفق نظرة كلية صحيحة للكون، فما المقصود بالكون؟ ما الغاية من خَلْقه؟ وما علاقة الإنسان به؟ وكيف تتمُّ عملية الإعمار؟ وما أهم مظاهرها؟ رُبَّما تُعَدُّ الإجابة عن هذه الأسئلة، ومحاولة الكتابة في إعمار الكون في ضوء نصوص الوحي، إسهاماً في إعادة بناء الأُمَّة لنفسها، وترتيب أولوياتها، ووضعها أمام مسؤولياتها من ضرورة النهوض بنفسها، واعتمادها على ذاتها في تحقيق ما تصبو إلى إنجازه من رقي ونهضة؛ استجابةً لنداء الحقِّ جَلَّ جلاله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: 11]. فالرقي والنهضة لا يُمكِن استيرادهما من الخارج، لا سيَّما أنَّ مصلحة هذا الخارج ماثلة في عدم رقي الأُمَّة المُسلِمة ومنع نهوضها، بل إبقائها سوقاً استهلاكيةً في كل شيء، وعالةً عليه في كل أمر، وهو ما يُؤذِن بتبعية الأُمَّة، وعدم استقلالها في اتِّخاذ ما يُصلِحها، واجتناب ما يُفسِدها (إسلامية المعرفة، العدد 54، 2008م، ص24).

إنَّ أهمَّ إشكالات البحث في موضوع السُّنَن الإلهية تتمثَّل في أنَّ جهود الفكر الإسلامي المُبكِّرة لم تُؤسِّس عِلْماً مستقلاً يُعْنى بدراسة السُّنَن الإلهية على غرار العلوم الشرعية والعقلية الأُخرى، وحضور الفِقه السُّنَني، أو اهتمام العلماء المُتقدِّمين بالسُّنَن، كان ضئيلاً وضنيناً بصورة كبيرة؛ ما أوحى أحياناً بضمور هذا الفِقه أو العلم في حياة الأُمَّة وعلمائها المُتقدِّمين، ما عدا شذرات مُتنافِرة هنا وهناك، وباستثناء ملاحظات شيخ الإسلام ابن تيمية في بعض مقالاته وفتاويه، وابن حزم

الأندلسي في بعض مُؤلَّفاته، وعدد من العلماء الآخرين، وهم من القلائل، في كتاباتهم، خلافاً للجهد النوعي المُتميِّز الذي أبدع فيه ابن خلدون بصورة يراها بعضنا مفاجأة أو طفرة، وهو علم العمران البشري الذي أسَّس فيه ابن خلدون لِفِقه سُنَني عمراني حضاري فريد (إسلامية المعرفة، العدد 44، 2006م، ص60).

فإشكالية البحث تدور حول الأسئلة الآتية:

– هل عمل علماء المسلمين القدماء على بناء عِلْم للسُّنَن على غرار العلوم الشرعية والعقلية الأُخرى؟

– هل كان من أولوياتهم وأهدافهم تأسيس ذلك العِلْم بالمعنى والمفهوم الذي نحتاج إليه اليوم؟

– هل كان وعيهم وفهمهم وطبيعة زمانهم وظروفهم ونظرتهم إلى السُّنَن لا يستدعي تأسيس عِلْم مستقل لها، والاكتفاء بالممارسة والوعي، وتحويل التنظير إلى عمل ووعي وثقافة عامة في سلوك الأُمَّة والمجتمع؟

– هل عدم وجود علم خاص بالسُّنَن الإلهية يعني وجود ضحالة في مجال الفِقه السُّنَني والوعي السُّنَني، وعدم اهتمام بالسُّنَن، أو تعذُّر فهمها وتسخيرها من علماء الأُمَّة في العصور المُبكِّرة لتطوُّر الفكر والحضارة الإسلامية؟

– إلى أيِّ مدى نستطيع إثبات أنَّ علماء الأُمَّة المُتقدِّمين قد اهتمّوا بموضوع السُّنَن الإلهية، واشتغلوا به، وأبدعوا في التأسيس للفِقه والوعي والثقافة السُّنَنيَّة التي كانت سبباً لازدهار الحضارة الإسلامية (إسلامية المعرفة، العدد 44، 2006م، ص61).

أدرك ابن خلدون أهمية فهم السُّنن الإلهية، والإيمان العميق بسلامة القيم الإسلامية، واستعداد المجتمعات للالتزام بها طوعاً دون إكراه، وإيمانها بالدور الفاعل الذي تضطلع به السلطة الحاكمة في الأمة الإسلامية بخصوص تطبيق هذه القيم، قال ﷺ: (إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن) ذلك أن ابن خلدون كان يعيش أزمة حادّة نشأت عن التفسُّخ الذي أصاب المجتمع في ذلك العصر، من

تدهور في الأحوال الاجتماعية والسياسية، وكان يرى أن المستقبل يشبه الماضي، وأن الماضي أشبه بالحاضر كتشابه الماء بالماء، فمن الممكن التنبؤ بالمستقبل من خلال تحليل الماضي، فعلم التاريخ لا يقتصر على تسجيل الأحداث فحسب (إسلامية المعرفة، العدد 77، 2014م، ص153).

ويرى عبد الحميد أبو سليمان أن من التشوهات الخطيرة التي أضرت بالعقل والوجدان والنفسية المسلمة تشوّه الخطاب الإسلامي في عهد الفصام بين النخبة الفكرية الإسلامية والنخبة السياسية، وما أورثه هذا الفصام والعزلة من عجز فكري، حوّل فكر الممارسة والاجتهاد والتجديد والإبداع إلى فكر مدرسي نصي مغلق، فانعدم الاجتهاد في عصوره المتأخرة، وقام على التقليد، وانتهى بأن يصبح النص الضعيف عند بعضهم أولى من الرأي، بالرغم من أن الرأي الذي يُعتد به مستند بالضرورة إلى الاستحسان على أساس روح الشريعة، ما أثّر سلباً في نوعية الخطاب وأهدافه والآثار المترتبة عليه في بناء العقل والوجدان والشخصية المسلمة (إسلامية المعرفة، العدد 94، 2018م، ص162).

وعلى ذلك، فلا بد من التكافؤ بين العمل الإنساني والخلق الكوني، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:7]؛ إذ نفهم من الآية الكريمة تعليلاً لخلق السموات والأرض، ولذلك سخَّر الله السموات والأرض للإنسان. جاء في تفسير الألوسي: (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) اللام للتعليل مجازاً متعلقة بـ"خلق" أي خلق السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات التي من جملتها أنتم، ورتب فيهما جميع ما تحتاجون إليه من مبادئ وجودكم وأسباب معاشكم، وأودع في تضاعيفهما ما تستدلون به من تعاجيب الصنائع والعبر على مطالبكم الدينية، ليعاملكم معاملة من يختبركم. وجاء في تفسير ابن كثير قوله: (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) أي خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه وحده لا شريك له، ولم يخلق ذلك عبثاً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: 27] (إسلامية المعرفة، العدد 83، 2016م، ص157).

وقد حدد أبو سليمان أربعة عشر مبدأً لبناء الرؤية الكونية، كلها وثيقة الصلة بمشروع الإصلاح والإعمار، لأن الرؤية القرآنية هي أساس ومنطلق ودافع له، بل إن قصد الإصلاح والإعمار هو مبدأ وغاية فطرية سوية لا تنفصم عن الرؤية الحضارية لمشروع الوجود الإنسان على الأرض، وإن الالتزام بهذا القصد في الحياة إنما هو تحقيق للذات الإنسانية؛ إذ يدعو القرآن الكريم والنهج النبوي الإنسانَ إلى التسخير والإعمار؛ لأنه مستخلف، والاستخلاف القائم على التوحيد يقتضي ذلك، وبهذه العناصر تتضح أبعاد الحياة الإنسانية السوية، ويتضح معنى وجودها. وما عداه من جحود ونكران وقسوة وظلم وسعي إلى الإفساد في الأرض لا إصلاحها، تدميرٌ لذات الإنسان وإلغاءٌ لغائيته الحقيقية في الأرض (إسلامية المعرفة، العدد 63، 2011م، ص160).

وفي سبيل نهضة هذه الأمة وتجديد بنائها، وخروجها من التيه والانحطاط الذي تعيش فيه يشير أبو سليمان إلى وجود ثلاث أزمات رئيسة تعانيها الأمة، هي: أزمة العقل والمنهج، وأزمة الفكر والثقافة، وأزمة الوجدان والتربية، وأكد أهمية التعامل الجاد مع هذه الأزمات، وأنه لا سبيل إلى تحقيق قدرة الأمة على إطلاق طاقاتها، وتجديد بنائها، وبلوغ غاياتها السامية من دون ذلك، على أساس من التوازن بين السياسي والفكري في جهود حركات الإصلاح، لتحقيق القدرة وتحرير نفسية المسلم، وتفعيل وجدانه (إسلامية المعرفة، العدد 94، 2018م، ص155).

وقد تحدث زياد الدغامين عن مخاطر الاقتصار على المفهوم المادي لإعمار الكون، وكان مما قاله في هذا: إن سبب هلاك تلك الحضارات اتخاذها منهجاً مادياً قاصراً غير راشد في التعامل مع الكون، فغفلت عن أن للكون نظاماً محكوماً بطبيعته بسنن إلهية ثابتة، لا تتبدل ولا تتغير، ينعكس استقرارها على الإنسان نفسه، وغفلت هذه الثقافات عن أن لهذا الكون خالقاً متصفاً بالوحدانية، وغفلت عن أن الحياة آية توحيد ساطعة، تسطع على وجه الكائنات، ولقد ضرب القرآن الكريم الكثير من الأمثلة لبيان قصور الإعمار المادي غير المتصف بقيم الخير والفضيلة، كصاحب الجنتين، وقصة الجنة وغيرها (إسلامية المعرفة، العدد 54، 2008م، ص33).

المحور الرابع: التوحيد رؤية للكون وإبستمولوجيا بناء الوعي

العنوان	المؤلف	نوع المادة	المراجعة	العدد	الصفحات
مؤتمر وجهات نظر توحيدية حول الله والحياة والكون	المعهد العالمي للفكر الإسلامي	بحث	–	العدد 23 2000م	(171 – 172)
رؤية للكون وإبستمولوجيا بناء الوعي المتجاوز عند إسماعيل راجي الفاروقي	الحاج دواق	بحث	-	العدد 74 2013م	(11 – 45)
بين الرؤية الواحدية والرؤية التوحيدية	هيئة التحرير	افتتاحية العدد	–	العدد 64 2011م	(5 – 13)
الحركة الكونية للإنسان في القرآن الكريم.	محمد الحسن بريمة	بحث	–	العدد 83 2016م	(151–179)
القصد في القرآن الكريم بين التكويني والتشريعي: مقاربة مقاصدية	عبد الرزاق وورقية	بحث	-	العدد 57 2009م	(13 – 44)
الله والإنسان في القرآن: دراسة دلالية لنظرة القرآن إلى العالم.	توشيهكو إيزوتسو	كتاب	عيسى علي العاكوب	العدد 42–43 2006م	(171–181)
علم العمران الخلدوني، وأثر الرؤية الكونية التوحيدية في صياغته: دراسة تحليلية للإنسان والمعرفة عند ابن خلدون	صالح مشوش	كتاب	عبد الله عمر	العدد 76 2014م	(143–162)
الوجود بين السببية والنظام	إلياس بلكا	كتاب	محمد علي الجندي	العدد 66 2011م	(143–172)

لم يزل اهتمام المعهد العالي للفكر الإسلامي بموضوع رؤية العالم حاضراً منذ بداية نشأته، وقد توالى هذا الاهتمام وتراكمت الجهود في بيان وتوضيح هذا الأمر، ومن ثمرات هذا الاهتمام، ما نتج عن المؤتمر الذي عقد في الفترة من 6–9 نوفمبر 2000م، في إسلام أباد تحت عنوان "مؤتمر وجهات نظر توحيدية حول الله والحياة والكون". وقد ساهم في تنظيم هذا المؤتمر كل من مركز اللاهوت والعلوم الطبيعية في جامعة بركلي بالولايات المتحدة الأمريكية، والمعهد العالمي للأبحاث في الجامعة الإسلامية العالمية في إسلام أباد، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي (مكتب إسلام أباد باكستان)، وقد اجتذب المؤتمر ما يزيد على خمسين عالماً من المتخصصين في حقول العلوم الطبيعية والدراسات الإسلامية، وقدّم فيه بحوث عديدة في مجالات العلاقة بين الدين والعلم (إسلامية المعرفة، العدد 23، 2000م، ص172).

وقبل ذلك بكثير اهتم الفاروقي بهذا الأمر، وأولاه رعاية خاصة، في العديد من مؤلفاته، خاصة كتابه التوحيد الذي حاول فيه إيجاد المقدمات النظرية والمنهجية والأفق المعرفي الذي في ضوئه يتم طرق الموضوعات وبناء منهاجها، وتفسير الواقع والظواهر بوساطتها، بعيداً عن الطابع السجالي السلبي، الذي يقف على أرض عقدية مغلقة، ومشدودة إلى تقريرات مذهبية سابقة وغير واعية. وتندرج رؤية الفاروقي التوحيدية في مشروعه في ثلاث حركات وظيفية، تتمثل الأولى في إنتاج المعرفة التوحيدية، والثانية الإقناع بها، والثالثة الدفاع عنها ورد إلقاءات المخالفين وإلزامهم بتناقضات ما يحملون من عقائد، ويتم ذلك من خلال أسلوبين، أحدهما إيجابي بنائي، يولد ويبرهن ويستدل، والآخر سلبي هدمي يرد ويُبطل، وكانت الوظيفة الإقناعية والدفاعية هي الغالب في الممارسة، وتم العدول عن الوظيفة الإنتاجية التأسيسية للمعارف المستمدة من الوحي بتجلياته التشريعية والتكوينية كافة، ما أعجز الوعي التوحيدي عن الانقذاف في عالم المناجزة العلمية، وتكملة الخط السياسي للأمة برافد عميق ينتج الأيديولوجية والرؤية (إسلامية المعرفة، العدد 74، 2013، ص17).

ويرى الفاروقي أنَّ المعنى التوحيدي يحضر في بعض المعارف المُتبنّاة المعلنة، كما هو حال علم التوحيد ومباحثه ومسائله، ويكمن في الدراسات العلمية الطبيعية، ويضمر في المظاهر العمرانية وتخطيط المدن وبنائها؛ فالتوحيد إعلانٌ ميَّز منظور مُتبنّيه إلى العالَم، ودفعه إلى تقييم وعيه إزاءه ضمن

عمليات مُركَّبة تبدأ سلبية، وتنتهي إيجابية، وتعود سلبية، ثمَّ تصير إيجابية، في مسيرة وجدلية وجدانية وفكرية وسلوكية لا تنتهي. وأكَّد الفاروقي أنَّ للتوحيد -بوصفه جوهر الحضارة الإسلامية- جانبين: المنهج، والمحتوى، وأنَّ الجانب الأوَّل يُحدِّد أشكال التطبيق والتوظيف للمبادئ الأولى في الحضارة، وأنَّ الجانب الثاني يُحدِّد المبادئ الأولى نفسها. وقد مال الفاروقي إلى المبادئ التي يتأسَّس عليها التوحيد بوصفه لازمة أنطولوجية لوجود الله سبحانه؛ فالله تعالى في كل مُدوِّنات الأنبياء والمرسلين ركَّز على معنى وحيد، انبثقت منه كل معاني الوعي ولازماته الكلية والتفصيلية. قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: 25]. (إسلامية المعرفة، العدد 74، 2013م، ص21-22).

وكلمة التحرير في العدد 64 أبانت القصد من مصطلح "الرؤية الواحدية"، ومصطلح "الرؤية التوحيدية"؛ فالرؤية الواحدية ترى أنَّ منهج التفكير والبحث في أيَّة قضية أو مسألة من مسائل الواقع الطبيعي، أو الواقع الاجتماعي، أو الواقع الإنساني، هو منهج واحد، وأنَّ الفكر البشري قد تطوَّر على مَرِّ التاريخ، فانتقل من مرحلة إلى أُخرى، وكان الإنسان في كل مرحلة يسلك منهجاً واحداً، ورُبَّما كانت فكرة أوغست كونت عن المراحل الثلاث للتفكير البشري هي تعبير عن هذه الرؤية الواحدية للمنهج؛ إذ يرى أنَّ البشرية قد مَرَّت بثلاث مراحل، بَدْءاً بالمرحلة الدينية اللاهوتية، ومروراً بالمرحلة الفلسفية الميتافيزيقية، وانتهاءً بالمرحلة الوضعية العلمية التي تُمثِّل وصول التفكير البشري إلى مرحلة النضج، باكتشاف المنهج العلمي التجريبي؛ فالإنسان في كل مرحلة من مراحل حياته كان يستخدم منهجاً واحداً، وما إنْ ينتقل من مرحلة إلى أُخرى حتى يترك المنهج الواحد الذي كان يستخدمه، ويستبدل به منهجاً آخر (إسلامية المعرفة، العدد 64، 2011م، ص5-6).

وقال محمد بريمة إنَّ محل عقد الاستخلاف مُتعيَّن في الأرض تحديداً، ولكنَّ الأرض ليست هي أرض السماء الدنيا التي يحيا فيها البشر الآن فحسب، بل إنَّنا ندَّعي -تأسيساً على القرآن الكريم- أنَّها سبع أرضين تتوزَّع في الكون؛ ما يجعل الكون كله مجالاً لحركة الإنسان، فيسعى فاعلاً ومُنفعِلاً بهذا التدبير الإلهي العظيم (خُطَّة الخَلْق العامة). وتقوم الفرضيات الأساسية لهذا البحث على أنَّ

أرض التمكين للإنسان ليست أرض السماء الدنيا هذه وحدها، وإنَّما تمدُّها من بعدها ست أرضين، تتوزَّع بين السماوات السبع، وجميعها مُستخلَف فيها الإنسان، الذي سوف تتوالى جهوده الاستخلافية حتى يبلغ بعلمه وعمله جميع الأرضين السبع، وها هو الإنسان وقد تسارعت حركته الكونية بحثاً عن امتداداته الأرضية، مُستغِلاً في ذلك تسخير الله تعالى له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً (إسلامية المعرفة، العدد83، 2016م، ص152).

وتحدث عبد الرزاق وورقية في مقاله تحت عنوان "القصد في القرآن الكريم بين التكويني والتشريعي: مقاربة مقاصدية" قال: "لما كان الخلق قصداً تكوينياً، وطلبُ المعرفة من الإنسان قصداً تشريعياً، تحصّل من ذلك أن القصد التكويني استلزم القصد التشريعي واقتضاه، ومن هنا ثبتت قصدية الخطاب القرآني وتنـزهه عن اللغو، فكل آية أو كلمة أو حرف في القرآن الكريم لم يقع إيراده عارياً عن الفائدة والحكمة، سواء علم السامع للخطاب بذلك أو لم يعلم، فالخطاب القرآني ذو امتداد دلالي مقاصدي يتجاوز الدلالة الوضعية للألفاظ، وعند النظر في نصوص القرآن في ضوء أبعادها المقاصدية ميز علماء الشريعة بين نوعين من القصد، أحدهما يؤول إلى الإرادة التكوينية، والثاني إلى الإرادة التشريعية، مما جعل الناس في حيرة من أمرهم، فاختلفت الآراء في العقائد الإسلامية، وتعددت المذاهب، ونشأ اضطراب فكري في علم الكلام، ومردّ هذا هو الخلط الواقع في مسألة الإرادة الواردة في كتاب الله تعالى، فعدم التمييز بين مقتضياتها القصدية وأنواعها في القرآن الكريم أظهر التعارض بين القائلين بالجبر، والقائلين بالاختيار" (إسلامية المعرفة، العدد 57، 2009م، ص13).

ويقرر بريمة أن المجتمعات البشرية تبني تقديراتها في ما يتعلق بنهاية الكون وقيام الساعة، على أن ذلك قد يتم غداً أو بعد غد، لـمّا أثاروا الأرض وعمروها، ولمّا أقاموا على ظهرها حضارة، ولـمّا انطلق الإنسان يجوب الكون بسفنه وبمسابيره الفضائية، ولانْتَفَت حكمة الله في خطة الخلق عامة، التي هي أساس الاستخلاف، لكن غالب المجتمعات البشرية تقيم رؤيتها للعالم إما على أن الكون خالد لا يزول، وإما أنه سوف يزول ولكن بعد أمد بعيد، وكلتا الرؤيتين الزمانيتين تسمح بالعمارة والحضارة التي تتراكم وتتوارث جيلاً بعد جيل، أما تلك المجتمعات التي تدير أمرها على أن الأمد

الزماني والمكاني لعمر الكون لا يعنيها، أو تلك التي ترىٰ أنَّ نهاية الكون باتت وشيكة، وأن الأمر أعجل من أن ننظر ماذا في السموات والأرض، أو أنْ نتفكر في خلقها، فهي مجتمعات سوف تظل علىٰ الدوام هامشية، خارج الفعل الحضاري. إنَّ الوعي بالأمد الزماني والمكاني والمدىٰ المكاني النسبي الذي يتحرك فيه الإنسان، وتتمدد فيه حياته، سواء في ذلك الأفراد والمجتمعات، أمر مصيري في ما يتعلق بالتصور والتخطيط ثم التنفيذ لِـما يمكن فعله في هذه الحياة الدنيا، في إطار المحددات الزمانية والمكانية (إسلامية المعرفة، العدد 83، 2016م، ص155).

فالمنهجية التوحيدية التي يدعو إليها المعهد العالمي للفكر الإسلامي كما في افتتاحية العدد (64) تحت عنوان "المدارس المنهجية بين الرؤية الواحدية والرؤية التوحيدية" لا تقتصر علىٰ الجمع والتكامل بين طرق البحث وأدواته حسب المتطلبات الإجرائية الخاصة بالبحث، وإنما تتجاوز ذلك لإرساء منهجية توحّد مستويات العمل المنهجي الثلاثة: أساليب التفكير في موضوع البحث، وطرق البحث في جمع البيانات وتحليلها، واستخلاص نتائجها وتفسير هذه النتائج، إضافة إلىٰ ضوابط السلوك البحثي التي تقتضي الأمانة والاستقامة في طلب الحقيقة والإخلاص في التجرد من الهوىٰ، وغير ذلك مما يسمىٰ أخلاقيات البحث. وهي توحّد جهد الباحث في استمداده من مصادر معرفته، من الوحي الذي يهتدي به للتي هي أقوم، من السبل والطرق ومن العالم في آفاقه الطبيعية والاجتماعية والنفسية، فيتعرف به الوقائع والطبائع، وفي توظيفه لأدوات اكتساب المعرفة واختبارها وتوظيفها، سواء كانت أدوات العقل أو أدوات الحس، فثمة جهد توحيدي في الاستمداد من المصادر، وجهد توحيدي في توظيف الأدوات، وجهد توحيدي في الجمع التكاملي بين المصادر والأدوات، وهي توحّد رؤية الإنسان في تفكيره وبحثه وسلوكه لحقول المعرفة وتخصصاتها؛ فعلوم الشريعة التي دارت حول نصوص الوحي، والعلوم الاجتماعية والإنسانية التي تدور حول حياة الناس في أحوالهم وتقلباتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية، والعلوم الطبيعية التي تدور حول خصائص المواد الطبيعية الحية والجامدة، والتحولات التي تطرأ عليها، والعلوم التطبيقية التي توفر للبشر سبل الحياة العملية والرعاية الصحية وأدوات الحركة والاتصال، كل هذه العلوم أنـزلها الله للإنسان، أو هداه

إليها، ويسّر له اكتسابها من أجل سعيه في حياته الدنيا في هذه الأرض، وتذليل سبل هذه الحياة، وترقية أسبابها. وعليه فإن الرؤية التوحيدية هذه سوف تتطلب جهداً توحيدياً لجهود البشر في تطوير هذه العلوم، فما ينجزه فرد من أفراد البشر، وما تنجزه أمة من الأمم من هذه العلوم، سوف تنعكس آثاره السلبية أو الإيجابية على سائر الأفراد وسائر الأمم (إسلامية المعرفة، العدد 64، 2011م، ص10 –11).

لم يكن أثر هذه الرؤية التوحيدية محصوراً في الجوانب النظرية التي تشغل اللغة جانباً أساسياً منه، بل تعداه إلى النواحي العملية التي يؤول إليها المفهوم بالوصف والتحليل، وعلى المستوى الثاني، ساهمت هذه الرؤية في صياغة الفروض العلمية، ذلك أن الفرضية التي استند إليها ابن خلدون في تكذيب الأخبار تجاوزت طبيعة الخبر إلى أمر آخر، بتمحيصها والاستدلال عليها بعدد من الأدلة (إسلامية المعرفة، العدد 76، 2014م، ص153).

تحت عنوان "الرؤية الكونية وبناء الاستدلالات" يقول صالح مشوش: "هذه الفطرة من وجهة نظر ابن خلدون خُلقت مزودة باستعداد إلهي، وهي توفر للإنسان شروط التكيف مع المؤثرات الخارجية، وكان ورود مفهوم الفطرة والبرهان الطبيعي في المقدمة مساعداً في توضيح معالم المنهج البديل الذي اقترحه وسار عليه، وكانت مطالبته بالعودة إلى التفكير الطبيعي تأكيداً على دور الإرادة الإلهية في العمران وما يتعلق به من نشاط إنساني، وهو ما يجعل معايير الوحي تسهم في فهم سلوك الإنسان الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والتربوي، ومنه يتضح الخطأ الذي وقع فيه القراء للفكر الخلدوني، هذه المعايير هي التي جعلت المنفعة عاملاً مثالياً لفهم السلوك الإنساني، ونشأة الـمُلك وفق حتمية الصراع من أجل تحقيق المنفعة، وهو ما يرفضه الواقع ويرده علم العمران التوحيدي" (إسلامية المعرفة، العدد 76، 2014م، ص154).

يرى إلياس بلكا أن القانون أعمّ من السبب، والنظام أعمّ منهما جميعاً، وذلك لأنه ليس فيه حتمية كالقانون، فالقانون أمرٌ كلي منطبق على جميع جزئياته التي يتعرف أحكامها منه، فهو وإن كان لا يفترض فيه أن يقول شيئاً عن علاقة سببية بين أمرين، إلا أنه يتضمن معنى الحتمية، والاطّراد الدائم، أما النظام أو التكرار فلا، لأنهما لا يتسعان جيداً للاحتمال، ولأشكال أخرى من النظر كالملاحظة والانطباع والحدس، ولكن ما ضمانة هذا النظام، إنّه الوعد الإلهي، فهو ضمانة استقرار

هذا الكون والحياة، يقول الله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: 62] ويمكننا أن نستنتج من هذه السُّنن الكونية أن هذا المبدأ الكبير (النظام) فيه إذنٌ غير مباشر بالنظر إلى المستقبل واستشرافه؛ إذ يدفعنا وهو يخبرنا بثبات سنة الله تعالى إلى أن نتوقع رؤيتها ورؤية آثارها في كل ما يحدث ويقع (إسلامية المعرفة، العدد 66، 2011م، ص170).

المحور الخامس: علاقة السُّنن الإلهية بقيام الحضارات وانهيارها

العنوان	المؤلف	نوع المادة	المراجعة	العدد	الصفحات
انهيار الحضارة الإسلامية وإعادة بنائها: الجذور الثقافية والتربوية	عبد الحميد أبو سليمان	كتاب	حسان عبد الله	العدد 94 2018م	(166 – 153)
الرؤية الكونية الحضارية القرآنية المنطلق الأساس لإصلاح الإنسان	عبد الحميد أبو سليمان	كتاب	يوسف الجوارنة	العدد 63 2011م	(166 – 151)
سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها	محمد هيشور	كتاب	يونس صوالحي	العدد 13 1998م	(166 –153)
القصد في القرآن الكريم بين التكويني والتشريعي: مقاربة مقاصدية	عبد الرزاق وورقية	بحث	-	العدد 57 2009م	44 – 13
مقاصد القرآن الكريم في بناء الحضارة والعمران	هيئة التحرير	بحث	-	العدد 89 2017م	(9– 5)
علم العمران الخلدوني، وأثر الرؤية الكونية التوحيدية في صياغته: دراسة تحليلية للإنسان والمعرفة عند ابن خلدون	صالح مشوش	كتاب	عبد الله عمر	العدد 76 2014م	(162–143)

يرتبط مصطلح "الحضارة" في وجدان المسلم بالحضور والشهادة على الناس، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة: 143]. ولهذا يحمل المسلم في كل زمان ومكان هذه المسؤولية بشروطها، أي حين تتوافر شروط، أهمها: الاستقلالية الفكرية والمنهجية للذات الشاهدة، فلا يمكن لأمة أن تمارس فعل الشهادة وهي في حالة تبعية، وامتلاك الحُجّة الحضارية التي تعد شرطاً أساسياً لقبول الشهادة، وتستلزم الحضور الحضاري والفعالية الحضارية للذات الشاهدة، لأن الغياب والسكون أو الجمود يؤدي إلى نقص في شروط الشهادة ورفضها، ثم العدل الحضاري؛ إذ إن من متطلبات الشهادة أن يكون الشهود عدولاً، والعدل الحضاري يتطلب توافر القوة الحضارية للذات الشاهدة؛ فلا شهادة لضعيف، أو واهن، ثم البصيرة الحضارية التي تتطلب سلامة المنهجين: النظري والعملي للذات الشاهدة حتى يثبت صدق شهادتها؛ لأن الكذب ملازم لغياب المنهج، أو مرضه، وفي ظل غياب الأمة عن وظيفتها الحضورية الشهودية، أخذ عبد الحميد أبو سليمان في كتابه "انهيار الحضارة" يصل ما انقطع في تاريخ الأمة من دراسات حضارية، ويجمع بعض الأفكار الغنية عن الخلدونيين (عبد الرحمن بن خلدون، ومالك بن نبي) في محاولة لإيقاظ الأمة، طارقاً عليها بطارق الحضارة لعلها تتدبر ما فاتها، وتلحق بما تأخرت عنه. وقد توزَّع الكتاب على ستة فصول، عرض في الفصل الأول الرؤية المتعلقة بالأزمة الحضارية وطبيعتها والعوامل المؤثرة فيها، وتطرق الفصل الثاني إلى أهم مظاهر الأزمة الحضارية وحصرها في مظهرين، هما تشوهات وانحرافات في فكر الأمة وثقافتها والحصاد المر، وآثار الانحرافات الفكرية في بناء الأمة النفسي، وحمل الفصل الثالث عنوان الطفل قاعدة الانطلاق، وفي الفصل الرابع تابع موضوع بناء الطفولة، وأكد أن طريق الإصلاح ومواجهة التحديات لا يكون إلّا برعاية الطفولة وبنائها، وتناول الفصل الخامس قضية الأسرة المسلمة؛ الحاضنة الوجدانية الأساسية للطفولة، وتضمن الفصل السادس خطة عمل الأمة التربوي من حيث جبهات العمل ومساراته، وخطة إسلامية المعرفة وتأصيل الفكر الإسلامي، وتجربة إسلامية المعرفة في إعداد الكوادر البديلة (إسلامية المعرفة، العدد 94، 2018م، ص153–154).

وفي مقال آخر يرى عبد الحميد أبو سليمان أن الأمة الإسلامية إذا لم تدرك أسباب انحسار مدها الحضاري، وضبابية رؤيتها الكونية وتشوهاتها، فلن تكون مؤهلة -كما كانت- لمهمة الاستخلاف الذي جعل منها أمة مبدعة بهرت بأدائها الرائع العوالم المعاصرة لها، يوم كانت تستقي مرجعية رؤيتها الكونية من القرآن الكريم، وتطبيقات الوحي الحقيقية في العهد النبوي وعهد صدر الخلفاء الراشدين، فكيف تشوَّهت هذه الرؤية الكونية القرآنية، وانحسر المسلمون، ونشأ أبناؤهم بتكوين نفسي وجداني مَعيب، وقصَّروا في النواحي العلمية والمعرفية، وعجزوا في المَدِّ العمراني والحضاري؟ (إسلامية المعرفة، العدد 63، 2011م، ص154). ويضيف أبو سليمان أن بداية ذلك الانحسار في الأمة الإسلامية كان مع غلبة القبائل العربية من الأعراب على قوة الأمة العسكرية وحياتها السياسية، بانهيار الخلافة الراشدة وقيام الملك الأموي العضوض، والردة إلى المفاهيم العرقية الجاهلية، فحلّت مكان الرؤية الكونية -النبوية الصحابية- رؤية أعرابية، جُلّ مصدرها خليط أملَته خاصية أحوال قبائل الأعراب، ثم صاحب ذلك اختلاط ثقافة الأمة وإرثها الحضاري بموروث الحضارات السابقة مثل الإغريقية التي كان لها آثار سلبية كثيرة استجاب لها ثلة من أبناء الأمة، فانشغلوا بالجانب السلبي منها المتصل بالفلسفة والمنطق، واستُنـزف العقل المسلم في سفسطات عقدية لاهوتية وهمية، ما صرفه عن مهمته الحضارية التسخيرية الإبداعية الحياتية الإعمارية، فانشغل العلماء بقضايا عقيمة لا تتعلق بشؤون الإنسان، ولا نفع يُرجى من ورائها، كقضايا خلق القرآن وغيرها، بينما جاء الإسلام لينقذ الإنسانية من براثن المادة وسلطة البشر، وليحدث نقلة حضارية عالمية بعيداً عن الموروثات العرقية والأسطورية والمنطقية التي تؤدي إلى ردة فكرية وغبش عقدي (إسلامية المعرفة، العدد 63، 2011م، ص154 - 155).

وفي العدد 13 من المجلة في دراسة لموضوع "سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها" استهل محمد هيشور الفصل الأوَّل من دراسته ببيان معنى السُّنن ومفهوم الحضارة كما يصورها القرآن، وانتهى إلى أن السُّنن في الفكر الإسلامي هي مجموعة القوانين التي يسير وفقها الوجود كله وتتحرك بمقتضاها الحياة، والسُّنَن بهذا المفهوم قسمان: سنن إجبارية وهي التي تجري على كل الكائنات الحية،

وسنن اختيارية وهي التي للإنسان قدرة إرادية فيها، فالسُّنن بوصفها قوانين ربانية ترسم للكون مساره وللإنسان طريقه، وهي بذلك تمتاز بالخصائص الآتية: أنها حيادية لا تحابي أحداً بغض النظر عن معتقداته ولونه وعرقه، فهي دائماً في صالح من يأخذ بها، وأنها العامل الأساسي في البناء الحضاري، وهذا يقتضي اكتشافها وتسخيرها في عملية البناء، وأنها مبنية على منظومة عقدية يجب مراعاتها ونحن نتعامل مع السُّنن، وأنها قوانين ربانية وليست حتميات ولا جبريات؛ أي إنها تتحقق بإرادة الله، ويرى الكاتب (هيشور) أن التصور الخاطئ للسُّنن هو الذي جعل الغرب يصنع حضارة سادها القلق واليأس، وغير ذلك من الويلات والمصائب، ومع كثرة سماعها لهذه المقولة في مناسبات عدة، فإن الكاتب وهو يردد هذا الحكم عن الغرب لا يوضح لنا السُّنن التي لم يأخذ بها الغرب، والتي كانت سبباً في قلقه ويأسه، فما ذكره الكاتب بشكل مقتضب يحتاج إلى كثير من التحليل والبيان، وعدم المجازفة بإطلاق أحكام قبل التدليل عليها (إسلامية المعرفة، العدد 13، 1998م، ص154).

والحديث عن مقاصد القرآن الكريم في بناء الحضارة والعمران يفرض على الباحث المسلم حالة من القلق المعرفي الإيجابي تجاه مدى حضور الأسئلة البحثية المناسبة لتكوين إجابات حضارية قادرة على تنظيم العقل والوجدان المسلم، ليغدو قادراً على استئناف دوره الحضاري، بدلاً من حضور إجابات الآخر وفِعْله الحضاري في تكوين الشخصية المسلمة، ولعل هذه فرصة لكي تكوّن هذه الأسئلة خارطة بحثية ناجعة، ومن أهم الأسئلة المتصلة بمقاصد القرآن في بناء الحضارة والعمران: ما مقاصد القرآن الكريم العامة؟ وما مقاصده الخاصة ببناء الحضارة والعمران؟ وكيف يمكن الكشف عنها في نصوص القرآن الكريم؟ وإذا صح القول بأن الدراسات القرآنية السابقة قد قصرت في الكشف عن تلك المقاصد الخاصة بالحضارة والعمران، فلم كان كذلك؟ وقد خصصت المجلة العدد 89 للحديث عن مقاصد القرآن في الحضارة والعمران، ؛ ما يُؤكِّد اهتمام المعهد منذ زمن مبكر بموضوع المقاصد؛ إذ أفرد مساحة مناسبة لتطوير العلم والمعرفة والمنهج في موضوع المقاصد، وجاء الحديث عن مقاصد القرآن منسجماً مع رؤية المعهد في تطوير المنهج والآليات المناسبة للتعامل

مع القرآن الكريم بوصفه الكتاب الكُلّي الأساس المهيمن، كما ينطلق كذلك من اهتمام المعهد بموضوع القيم الكُليَّة الحاكمة الممثلة في التوحيد والتزكية والعمران (إسلامية المعرفة، العدد (89)، 2017م، ص8).

وقد أشار صالح مشوش إلى أنَّ دراسات الطرح الإسلامي في الفكر الخلدوني ما تزال في طور التمهيد؛ فهي تحوم على أطرافه من دون التوغُّل في صُلْب المسائل التي حاول ابن خلدون أنْ يجيب عنها في موضوع العمران والإنسان، أو الدين والعِلْم. وكل ما جاء به إنَّما هو مُقدِّمات تُؤكِّد إمكانية صياغة طرح بديل لفهم مقاصد عِلْم العمران ودلالاته التطبيقية (إسلامية المعرفة، العدد 76، 2014م، ص145).

خاتمة

إنَّ من أهمَّ ما خلصت إليه هذه القراءة هو أنَّ قوَّة الحضارة الإسلامية، والدور المنوط بها في الاستخلاف والإعمار والشهود الحضاري، مُرتبطان بفهمها وسيرها على السُّنن الإلهية التي وضعها الله تعالى لنا في هذه الأرض، وأن علماء المسلمين تركوا لنا -على مَرِّ التاريخ- تراثاً فكرياً ومنهجاً يمكن أن يفتح الآفاق نحو بناء صرح هذه الأمة، من الجوانب جميعها؛ العلمية، والمعرفية، والثقافية والاقتصادية، لتكون أمة كما أرادها الله تعالى أن تكون. وقد خلصت القراءة كذلك إلى أنَّ عدم تأسيس علم أو علوم قائمة بذاتها في مجال السُّنن لا يعني عدم وجود وعي حضاري سنني، وثقافة سننية رصينة وملتزمة بتوجيهات الوحي، ورشد الخبرة الإنسانية.

وقد تحدث علماء المسلمين منذ القرون الأولى عن السُّنن الإلهية، ليس فقط من خلال دراستهم للنصوص القرآنية وتوجيهات الأحاديث النبوية الشريفة وتفاعلهم معها، إنما تحدثوا كذلك من خلال إعمال الفطرة والعقل، وتتبُّع سنن الله تعالى في التاريخ والواقع، والنظر في حوادث الأمم، في محاولة لفهم أسباب نهوضها وسقوطها.

وقد أكَّدت القراءة ضرورة تكثيف الدراسات والبحوث في مجال استكشاف جهود علماء المسلمين وأعمالهم في ميدان بناء عِلْم السُّنن، وفي تشكيل الوعي السُّنَني والثقافة السُّنَنيَّة المُلتزِمة بتوجيهات الوحي، والمستفيدة من رشد الخبرة الحضارية القديمة والحديثة.

وقد حاولنا من خلال هذه المحاور أنْ ننظر إلى موضوع السُّنَن الإلهية من زوايا مُتعدِّدة؛ للوقوف على مختلف أبعاد الموضوع، وبخاصة ما له تعلُّق بإعمار الكون، والرؤية الكونية القرآنية الحضارية، مُؤكِّدين ضرورة إعادة النظر في بعض المفاهيم والأساليب التربوية، والإحاطة بمُتطلّبات البحث العلمي الإسلامي الاجتماعي الكوني؛ ليتمكَّن المسلمون من استعادة دورهم الفاعل في مسيرة العطاء والإبداع والريادة الحضارية، وتتضافر جهودهم لاستكمال مُتطلَّبات المنهجية التوحيدية، والتدريب عليها وتقديمها إلى المجتمع الإنساني، والتدريب على طرائق التفكر المنهجي، للوقوف على حكم قيمي على أيَّة رؤية إلى العالم، والإسهام في بناء الحضارة الإنسانية وترشيدها من خلال وجهات نظر المؤلفين في هذه المسألة.

المراجع

الأحمد، محمد علي. نحو رؤية منهجية مواكبة في دراسة التاريخ (ابن خلدون نموذجاً). **إسلامية المعرفة**، العدد (51)، ص (9 –38).

برغوث، عبد العزيز. قضية السُّنن الإلهية في الفكر الإسلامي المبكر بين التأسيس النظري والوعي الثقافي السُّنَني. **إسلامية المعرفة**، العدد (44)، ص (59 – 90).

برغوث، عبد العزيز. ملاحظات حول دراسة السُّنن الإلهية في ضوء المقاربة الحضارية. **إسلامية المعرفة**، العدد (49)، ص (13 – 48).

بريمة، محمد الحسن. الحركة الكونية للإنسان في القرآن الكريم. **إسلامية المعرفة**، العدد (83)، ص (151 – 179).

الجندي، محمد علي. قراءة في كتاب الوجود بين السببية والنظام، تأليف: إلياس بلكا. **إسلامية المعرفة**، العدد (66)، ص (143 –172).

جوارنة، يوسف. قراءة في كتاب الرؤية الحضارية القرآنية: المنطلق الأساس للإصلاح الإنسان، تأليف: عبد الحميد أحمد أبو سليمان. **إسلامية المعرفة**، العدد (63)، ص (151 – 166).

حسان، حسان عبد الله. قراءة في كتاب انهيار الحضارة وإعادة بنائها: الجذور الثقافية والتربوي، تأليف: عبد الحميد أحمد أبو سليمان. **إسلامية المعرفة**، العدد (94)، ص (153 – 166).

الدغامين، زياد خليل. إعمار الكون في ضوء نصوص الوحي. **إسلامية المعرفة**، العدد (54)، ص (23 –62).

دواق، الحاج بن أحمنة. التوحيد: رؤية للكون وإبستمولوجيا بناء الوعي المتجاوز عند إسماعيل راجي الفاروقي. **إسلامية المعرفة**، العدد (74)، ص (11 – 45).

زرزور، عدنان محمد. ابن خلدون وفقه السُّنن. **إسلامية المعرفة**، العدد (50)، ص (153 – 176).

ابن سراي، نصر الدين. رؤية العالم بوصفها أداةً إجرائية لمقاربة الحداثة. **إسلامية المعرفة**، العدد (91)، ص (45 –70).

صوالحي، يونس. قراءة في كتاب سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، تأليف: محمد هيشور، **إسلامية المعرفة**، العدد 13، ص (153– 166).

العاكوب، عيسىٰ علي. قراءة في كتاب الله والإنسان في القرآن: دراسة دلالية لنظرة القرآن إلىٰ العالم، تأليف: توشيهكو إيزوتسو. **إسلامية المعرفة**، العدد (42 –43)، ص (171 – 181).

عمر، عبد الله عطا. قراءة في كتاب الحضارة الإسلامية وأسباب الانحطاط والحاجة إلىٰ الإصلاح، تأليف: محمد عمر شابرا. **إسلامية المعرفة**، العدد (77)، ص (151 – 170).

عمر، عبد الله عطا. قراءة في كتاب علم العمران الخلدوني وأثر الرؤية الكونية التوحيدية في صياغته: دراسة تحليلية للإنسان والمعرفة عند ابن خلدون، تأليف: صالح بن طاهر مشوش. إسلامية المعرفة، العدد (76)، ص (143 –162).

مؤتمر الله والكون والحياة: رؤية إيمانية، إسلام آباد، إسلامية المعرفة، العدد (23)، ص (171 –172).

هيئة التحرير، المدارس المنهجية: بين الرؤية الواحدية والرؤية التوحيدية. **إسلامية المعرفة**، العدد (64)، ص (5 –13).

هيئة التحرير، مقاصد القرآن في بناء الحضارة والعمران. **إسلامية المعرفة**، العدد (89)، ص (5 –9).

وورقية، عبد الرزاق. القصد في القرآن الكريم بين التكويني والتشريعي: مقاربة مقاصدية. **إسلامية المعرفة**، العدد (57)، ص (13 – 44).